مسألة القيمة في النقد العربي القديم

في القرنين الثالث والرابع الهجريين

تُعدّ (القيمة) أحد أهم محاور الدراسات الحديثة التي جذبت اهتمام الفلاسفة والمفكرين. ويُطلق مصطلح (القيمة) في الفلسفة الحديثة من الناحية الموضوعيّة على" ما يتميّز به الشيء من صفات تجعله مستحقًا للتقدير كثيرًا أو قليلًا "[١] ويحتاج تمييز صفات القيمة في الأشياء إلى مقاييس معيارية تستعمل –غالبًا– في التقدير ، فالمعيار في نظريّة القيم (Axiologie)[٢] يعدّ " مقياس الحكم على قيم الأشياء"[٣] . غير أن الاختلاف حول أوصاف القيمة ومفهومها وطبيعتها كان واقعًا ملموسًا بين الاتجاهات الفلسفية المتباينة، وما زال درسها حديثًا موضعًا للجدل بين العلماء .

وكان لمسألة القيمة حضورٌ بارزٌ في الفكر العربي القديم ؛ فلو عددنا ، مثلا ، القيمة " عنوانًا جديدًا يُطلق ، من بعض جوانبه، على موضوعات قديمة لتسنّى لنا أنْ نتتبع نشأتها وتجليتها عند بعض المذاهب القديمة "[٤] ومن الميادين التي يظهر فيها الوعي بالقيمة قديمًا ميدان النقد الأدبي؛ ففي كثير من نصوصه تتجسد تلك المعايير التي وضعها النقاد وقاسوا على أساسها جودة الشعر. ولا شك في أن لفظ (الجودة) كان هو المصطلح الذي تداوله النقاد القدامى في مصنفاتهم النقدية مشيرين به إلى القيمة التي كانت وراء انتخاب النصوص وحفظها وروايتها، ثم تحولت لديهم إلى مواقف معيارية كانت موضوع جدل مهم بينهم بثرائه وتنوعه.

---

(١) صليبا ، جميل ، **المعجم الفلسفي** ، دار الكتاب اللبناني ، ط:١ ، ١٩٧١ ، ج٢: ٢١٣

(٢) وهي نظرية حديثة تبحث في طبيعة القيم وأصنافها ومعاييرها ، وتعدّ هذه النظرية بابًا من أبواب الفلسفة العامة ، وترتبط بالمنطق وعلم الأخلاق والجمال . (يُنظر السابق ، ص : ٢١٥) .

(٣) السابق : ٤٠٠ .

(٤) قنصوة ، صلاح ، **نظرية القيم في الفكر المعاصر** ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط٢ : ١٩٨٤ ، ص : ١٨

وكانت مرتكزات " القيمة " قد تمثّلت في النقد الأدبي في الانفعال، والانطباع، والذوق والإحساس . وهذه جميعًا تبدو في نظر كثير من النقاد القدامى والمحدثين، ممتنعة عن الدراسة العلميّة؛ لكثرة ما يدخل عليها من تحوّلٍ وتغيير يحولان دون التثبت الموضوعي منها .

غير أن " القيمة " تبدو، مع ذلك، مقوّمًا من مقوّمات الأعمال الأدبيّة لا يمكن التغافل عنه. فهي كائنة في العوامل التي فُضِّلت واستُحسنت تلك الأعمال من أجلها وعدَّت أدبًا ، مثلما هي بارزة في تعريف الأدب نفسه وفي أنماط استعماله ودراسته .

تبدو مسألة القيمة إذن في الطرح النقدي أعقد من حصرها في مشكلة إمكان درسها موضوعيًا من عدمه . يدل على ذلك أن النقد الأدبي في معظم عهوده ، سواء أأعلن انصرافه عنها أم لم يعلنه، قد شُغل بها . فالنقاد يدرسون أعمالًا اكتسبت ، في الغالب ، صفة الجودة أو عدّت ممثلة لها في سواها . وهم يدرسونها بحثًا عن مقوماتها الذاتيّة وعن وظائفها ، وهذه المقومات وتلك الوظائف ليست غريبة عن العوامل التي اختيرت لأجلها وعدّت من الأدب ، وهي ، في جلّها ، قيميّة؛ لذا تبدو " القيمة " حقيقة ثابتة في النصوص الأدبية. لكنّ الإشكاليّة تكمن في مفهوم القيمة في حدِّ ذاته . فهي من المفاهيم التي لا يتيّسر حصرها في عوامل أو تبيّنها في ظواهر يمكن أن تعدّ مقومات لها. يدلّ على ذلك أن النقاد في مختلف العهود، قد تباينت آراؤهم في تحديد معيار تتجسّد فيه قيم الأعمال الأدبية.

وللنظر في هذه الإشكاليّة ، إشكاليّة الوعي بالقيمة وأثره في الممارسة النقدية ، رأت هذه الدراسة أن تَهْتمّ بالكيفيّة التي عولجت بها في النقد العربي القديم .

وأوصلنا البحث في مسألة القيمة في النقد العربي القديم في القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى أن الوعي بالقيمة لم يكن على مستوى واحد من التناول ، وإنما جاء ذلك على مراحل تتفاوت من حيث العمق و النمو . وفي كل مرحلة منها وجدنا التنوّع والتوسّع والاختلاف في أحكام القيمة .

كما أوصلنا البحث في القيمة إلى أن موقعها من النصوص يتنوّع ويتفاوت من موقع إلى آخر فهي كائنة في النص أو في خارجه ، أو في علاقته بالعالم . فضلا على أن تلك المواقع ظلت موضع جدل بين النقاد على مرّ العصور . فلم يصل النقاد العرب القدامى إلى مقاييس فنيّة وموضوعيّة ثابتة ؛ حيث كشفت المواقف النقدية المتنوعة التي وقفنا عليها في هذا البحث عن ألوانٍ من الانطباعات والتصورات والمعايير التي كانت تختلف وتتنوّع باختلاف العصور وتتابعها ، فضلا عن تباينها في العصر الواحد .

وبعد النظر في نمو المادة النقدية إلى نهاية القرن الرابع ، واستعراض المواطن التي عدّ النقاد القدامى القيمة متجسّدة فيها ، تبيّن لنا أهمية تجربة الخوض في مسألة القيمة في النقد العربي القديم .

فهي تجربة حافلة جدا بالكثير من الرؤى النقدية التي مكّنت من الكشف عن طبيعة القيمة في النصوص الشعريّة ، من خلال طرح كثير من النقاشات والتساؤلات حول هذه المسألة في الشعر ، ثم من خلال محاولة التعرّف على خصائص الشعر نفسه ومميزاته ودوره وأثره ، والاجتهاد في الوصول إلى إدراك موضوعي للقيمة والتقنين لها .

ذلك أن تناول النقاد القدامى لطبيعة الخطاب الشعري ومكانته وأثره كان قد حتّم عليهم الوقوف على قيمة النصوص التي تثير إعجابهم بتداولها ودراستها وتحليلها .

وكان التعامل مع الشعر في النقد العربي القديم ميدانًا منفتحًا –في تقدير قيمته والإحساس بوقعه في النفوس– على الساحة الاجتماعيّة والثقافية والعلمية ؛ فقد لاحظنا أن تناول مسألة القيمة ومحاولة الإفصاح عن موقعها من النص كان موقفًا مشتركًا . فالمادة النقديّة القديمة اشتملت – في كثير منها– على أراءٍ متعددة للغويين ، والرواة ، والأدباء ، ومن بينها أيضًا أحكاما مروية عن الخلفاء والشعراء وبعض العامة من متذوقي الشعر . هذا إلى جانب انشغال أصحاب رسائل الإعجاز القرآني بالتعقيب على آراء النقاد ، ومحاولة تمييز قيمة النص القرآني من قيمة النص الشعري.

فكشفت تلك المدونة عن هاجس الناقد العربي القديم –سواء أكان شاعرًا أم ناقدًا متخصّصًا ، أم عالمِا ، أم مجرد فرد من عامة الناس أو خاصّتهم – حول مسألة القيمة وارتباطها بمؤثرات تاريخية واجتماعية ولغوية وثقافية ودينية وفلسفية .

وكان لهذا الانفتاح في تناول وتقدير قيمة النصوص دوره الكبير في الإحاطة بمواقف متنوعة من مواقف التعامل مع الخطاب الشعري ؛ فالأصمعي وابن سلام وابن قتيبة والجاحظ مثلا كانوا ينقلون في مصنفاتهم –إلى جانب آرائهم الخاصة–الكثير من الانطباعات حول مسألة القيمة في الشعر ، وهي انطباعات لم تكن تختص بفرد أو جماعة أو فئة معينة ، وإنما وجدناها انطباعات عامة تنتسب إلى فئة من الشعراء والشيوخ وعامة الناس مثلما تنتسب إلى اللغويين .

وتلك الآراء العامة وإن كانت غير قادرة–في بعضها– على الولوج إلى عالم الخطاب الشعري ذاته بالتحليل والتعريف إلا أنها حاولت الإحاطة بحال الناس مع الشعر ، وحال الشعر بين الناس إحاطة لا تنفصل عن تناول القيمة فيه .

فحين كشفت المدونة النقدية القديمة عن طبيعة التعامل العام مع الأشعار ، والإفصاح عن مكانة الشعر وأثره ودوره ، من خلال تجسيد المواقف والغايات ، وإطلاق الأحكام والآراء على أبيات من الشعر ، وإظهار الإعجاب والتأثر بها ، وتداولها دون سواها من الأشعار ، لم يكن ذلك الكشف بمعزل عن القيمة ؛ إذ لم ينفك النقاد ، وهم يقومون بذلك ، من تناول قيمة الشعر انطلاقا من الانفعال به أولا ثم محاولة تفسير سرّ هذا الانفعال سواء أكان شخصيّا أم جماعيّا . بحسب ما توافر لدى كل واحد منهم من إمكانات فكرية وعلمية واجتماعية وفلسفية ومنهجية .

فكان التعامل مع الشعر إذن في كل مراحل النقد في القرنين الثالث والرابع هجريا ، وعلى كافة المستويات ، يستدعي بالضرورة تناول القيمة التي تنطوي عليها الخطابات الشعريّة . ووجدنا أنه من خلال القيمة كانت تتحدّد طبيعة التعامل مع الشعر والشعور به ودراسته والحكم عليه .

وهكذا يكون انفتاح الشعر على مختلف الأفراد والمجتمعات والمذاهب قد أسهم في اتّساع تناول مسألة القيمة من جوانب متعددة وفقا لغايات وتصوّرات المتعاملين معه . فوجدنا أن المدونة النقدية القديمة جسّدت لنا الخطابات الشعرية ككائنات أساسية تعيش بين الناس وتشاركهم همومهم وأفراحهم وتلبي مطالبهم وغاياتهم على كثرتها وتنوعها ، وتستجيب لغاياتهم وتصوراتهم على اختلافها وتجددها . وهذا من أخصّ الخصائص التي ينهض بها الخطاب الشعري ، دون غيره من أنواع الخطابات الأخرى التي تسْتعمل اللغة كوسيلة لبلوغ غاية محصورة جدا ومقننة ؛ فبالشعر إذن تتحقق استجابات لا حدّ لها .

ولا يكون للشعر قدرة على الانفتاح في حال سلمنا بأن القيمة فيه محددة ومقيّدة ، وإنما استطاع الشعر أن ينفتح انفتاحًا مشتركا ويستمر لأن القيمة فيه قيمة قابلة للانفتاح والاتّساع والتنقل ، فهي إذن غير مقيّدة ، كما أنها ليست مطلقة . فلا يمكن إذن أن تكون القيمة خاضعة للمعايير ، كما أنه لا يمكن أن تكون متحررة منها تحررا كاملا .

لأنه لو كانت القيمة مقيّدة لما استمرّ التعامل مع الشعر بهذا الشكل من الاتّساع والانفتاح على جميع العصور . ولو كانت مطلقة لما وجدنا مثل هذه المواقف المتنوعة التي كانت تقف على النصوص مواقف مختلفة ، وتفصح عن القيمة فيها ، إفصاحًا يتحدّد في نص ، ويتبدّل تحديده من نصّ إلى آخر .

فأكّد النقاد القدامى –من خلال وقفاتهم المتنوعة– على أن النظر في الشعر لم يكن محصورا بوظائف ومعايير معينة فحسب ، وإنما اتّسع أفقها مع الزمن لتُجدد علاقة الماضي بالحاضر ، فتُفيد من ثراء الماضي وخبراته وسبقه إلى الخلق والإبداع ، وتَنوّع الحاضر وانفتاحه واتجاهه نحو التجديد والتغيير ، وتجسيد ما كان وما لم يكن ، واختزال ما يمكن استظهاره عبر الزمن .

فكانت المحصّلة من هذا كله التأكيد على تنوّع القيمة التي نهض بها الخطاب الشعري ، وما زال قابلا لأن ينهض بالكثير غيرها . وهذه القيمة تقع في النص الشعري موقعًا متجدّدا ومتغيّرا ومتميّزا .

وهذا يعني أن القيمة لا مهرب منها عند التعامل مع الشعر ؛ فهي كامنة في أصل اختيار الشعر ، وتداوله ، والنظرة إليه . كما أن النقاد القدامى ، وهم ينقلون مواقفهم ومواقف غيرهم ، كانوا قد وقفوا على مواقع للقيمة في الشعر ، ليكشفوا أنها موقعيّة تظهر في النصوص التي يتمّ التعامل معها ، ولم تكن مقيّدة بمعايير ثابتة يمكن إخضاع جميع الخطابات الشعرية لها .

وإذا كانت بعض المواقف في التعامل مع القيمة لم تتوصّل إلى تقنين للقيمة أو حصر لها ، فهل استطاع الموقف المتخصّص تحقيق ذلك وهو يفصح لنا عن مسؤوليته في الوصول إلى نتائج أكثر موضوعية ؟

وجدنا أن الاتجاه في بحث مسألة القيمة في النقد العربي القديم كان قد أخذ ينحو منحى جديدا في التعامل مع الشعر على يد بعض النقاد القدامى للتعريف به ، والتعرّف على خصائصه المميّزة له عن غيره . وكان هدف هذه الممارسة النقدية المتخصصة هو الوصول إلى تقنين للقيمة في معايير وأحكام محددة تضبط التشتت والاتّساع والجدال في تقديرها ، وتحسم أمر الاختلاف حولها لتنتقل بالمسألة إلى درجة من العلمية والموضوعية . كما نهض التعامل المتخصص مع الشعر بتحليل كثير من الآراء السابقة ووصف طبيعة النظم الشعري وتوجيه الشعراء إلى وسائل تجويده .

فوقف أولئك النقاد –لأن عملهم كان تعليميًا وموضوعيًا– على السيئات لتجنبها ، وعلى الجودة للاقتداء بها واحتذائها . فكان عملهم النقدي عملا وصفيًا من ناحية ، ومعياريًا من ناحية ثانية . أمّا المعياريّة فتكمن في تتويج بعض النماذج الشعرية أمثلة يمكن الاقتداء بها والصوغ على منوالها ، وأمّا الوصف فهو الموقف الذي كان نازعًا نحو العلميّة والموضوعية . ومن خلاله نهض

بعض النقاد القدامى بمسؤولية دراسة القيمة في الخطاب الشعري سعيًا للتعرّف على أبرز معاييرها ومواقعها التي يمكن الاعتداد بها وتبيينها بالدلالة عليها وتحكيمها عند التعامل مع الشعر .

واستعمل أولئك النقاد لمعالجة المسألة مناهج دقيقة ومتنوعة . وكشفت محاولتهم تلك عن صلاحيّة المناهج المختلفة للتعامل مع الشعر في دراسة خصائصه والحكم عليه ؛ فابن طباطبا استطاع بمنهجه الذي يعتمد على الذوق أن يفصل بين الأشعار المحكمة والأشعار الغثّة وغيرهما ، وأن يختار من أشعار العرب ما يخضع له كل نوع منها ، ويستدعي من الأشعار في قديمها ومحْدثها ما يؤيد أفكاره ومنهجه . وقدامة بن جعفر استطاع أن يخضع الشعر لمنهجه المنطقي ، كما استطاع الآمدي بمنهجه التطبيقي أن يوازن بين شعر أبي تمام والبحتري باستغلال مواقع للقيمة تظهر في بعض الأبيات دون غيرها ، وتمكّن القاضي الجرجاني أيضًا من أن ينصف شعر المتنبي بمنهجه الشمولي في استقصاء بعض الأشعار في عصورها لإثبات طبيعة تفاوت مواقع القيمة في نصوص الشعراء .

ومن خلال وقفاتنا السابقة على نمو الوعي بالقيمة في المادة النقدية القديمة في مرحلتي التأسيس والتخصيص ، ثم من خلال رصدِنا التحليلي لمعايير القيمة ، وجدنا أن النقاد القدامى كانوا قد انتهجوا في علاج المسألة مستويين :

الأول : متعلق بتعريف الشعر والخوض في مكوّناته وفيما يحسن من الأشعار أو يكون رديئًا . كما اتّضح في منهج قدامة بن جعفر ، وابن طباطبا ، حين حاول قدامة حصر حدود الشعر ، وحاول ابن طباطبا تمييزه عن النثر من جوانب وتوضيح ما ينبغي في الشعر وما لا ينبغي . ولكن الملاحظ أن هذا المستوى التعريفي كان محدودا في نظرته إلى القيمة ؛ فالشعر الجيّد لدى بعض النقاد كان يتمثّل في الخطاب المصنوع وفق بنية تركيبية محْكمة ، وهذا الفهْم قادهم للاهتمام بالكيفيّة التي بها يتمّ التعبير ، سواء عمّا هو مفيد ، أو عمّا هو ممتع . ولا شكّ في أن هذا الفهم كان يحصر حكم القيمة في مستوى الإتقان الشكلي والتركيبي في الصنعة الشعرية .

والثاني : متعلق بالكشف عن أمارات الحسن والجودة وإرجاعها إلى مبرراتها . وكانت تلك المبررات مختلفة ، نراها في النص ، وفي الشاعر ، وفي المعنى ، وفي المتلقي ، وفي العالم . لذلك نظر القدامى إلى النص من حيث هو خطاب يحوي أفكارًا وحكمًا وإخبارًا ، وهذا الفهم يبقى في حدود المفيد . ثم نظروا إليه من حيث هو خطاب فني يروع بحسنه ويدهش ويحرك المشاعر ، وفهْمهم للقيمة من هذه الوجهة يبقى في حدود الممتع . ثم نظروا إلى الشعر من حيث هو خطاب يحوي إخبارا بما خفي وما هو غير مدْرك من العالم وفي المحيط ، والقيمة وفق هذا الفهم كائنة في الانفتاح على العالم الآخر الذي يذكره الشعراء .

وفي هذين المستويين يتّضح أن كيفية علاج المسألة لدى النقاد المتخصصين ، لم تصلّ إلى مرحلة الاتفاق على معايير ثابتة للقيمة ، بل إن تقديرهم لقيمة الخطاب الشعري تحدد في مواقع منه ، وكثيرًا ما كانت المعايير تتداخل فيما بينها بسبب كثرة الآراء التي وصفوا بها الشعر الجيّد .

والمشكلة التي واجهت النقاد القدامى ، وأوصلتهم إلى ما وصلوا إليه من نتائج غير مستقرّة في علاج المسألة ، هي أن القيمة ذاتيّة ؛ لذا فإن مشروع تقنين القيمة وحصرها في حدود ومعايير ثابتة كان مشروعًا غير ممكن .

لذلك لاحظنا أن النقاد كانوا يحاولون أن يتجاوزوا هذه المشكلة بالوقوف في علاجها عند حدّين : حدّ أدنى ، وحدّ أقصى . ويبقى ما بين الحدين ميدانًا فسيحًا لتقدير القيمة من جوانب متعددة.

والحدّ الأدنى من القيمة كان يتمثّل في الأشعار السالمة من الأخطاء . ويشهد بذلك الكثير من المواقف النقدية التي حاولت أن تقوّم بعض تجاوزات الشعراء في النظم ، وهي تجاوزات لفظية وتركيبية ومعنوية وفكرية .

ووجدنا أن الحدّ الأدنى للقيمة في النقد العربي القديم قد ارتكز على مقاييس كثيرة ، منها ما كان يدور في محيط المستوى التعريفي الذي أخذوا به ، ومنها ما يتعلّق بمستوى الكشف عنها في

اللفظ والتركيب وغيرهما مما وقفنا عليه . والملاحظ في مثل هذه الوقفات النقدية أنها كانت تحلل القيمة وتقنع بها من موقع محدد في البيت أو القصيدة المثال . وكانت ترى في الشعر مواقع لم يتحقق فيها شروط الإتقان الكافي ، وتحاول معالجة الخلل فيها رجاء إتقان الصنعة وإخراجها إخراجًا جيّدا .

وفي المقابل كان الخطاب الشعري ينْضح بجوانب من الإبداع المتجدد ، لتتجدد تبعا لذلك مواقع الحدّ الأدنى للقيمة وتختلف من نص إلى آخر مسايرة في ذلك طبيعة الخطاب الشعري .

ولم تكن القيمة سهلة التناول والإقناع بها على الدوام ، وإنما أدرك النقاد القدامى أنها تكون فوق الحدّ الأدنى ، فتأتي أرفع من الشكل والمحتوى وغيرهما من العناصر الأخرى القابلة للبرهنة عليها والتعليل لها ، لذا نجدهم وقفوا عند الحدّ الأقصى للقيمة والذي تمثّل في الشعر الجيّد الذي لا وراء له سوى الإعجاز مجسّما في الإعجاز القرآني .

فالمدونة النقدية القديمة قد اشتملت على كثير من المواقف التي وقفت على بعض الأشعار موقف العاجز عن التعليل ، لتؤكد على أن القيمة كائنة في شيء من الحسن أو الجمال تطرب له النفس وتمتع به ، لذا نعتوا بعض الأبيات بـ (السحر ، والعجب ، والغرابة) ، فابن طباطبا شرح لنا تأثير الشعر في النفوس ، والآمدي والقاضي الجرجاني توصّلا إلى أن من الشعر ما لا تُدرك جودته بالوصف أو التعليل .

وإذا كان النقاد المتخصصون قد أجمعوا على ضرورة الرجوع في تقدير القيمة إلى رأي الناقد المتخصص ، فإنهم في هذا الحدّ الأقصى الذي وقفوا عليه يعودون بنا إلى مرحلة الإحساس بالقيمة لدى الجيل الأول من النقاد ، وإلى تلك الأحكام الانطباعيّة التي كانت غير قابلة للاتفاق فيها لاختلافها من متعامل مع الشعر إلى آخر دون ضوابط تدلّ عليها . فالإحساس بمعجز الشعر كان قائمًا في النقد العربي القديم من بداية الوعي به ، واستمرّ الاعتداد به مع نمو الوعي في بعض المواقف .

ومن الأحكام الانطباعيّة الأولى التي كان يظهر فيها بلوغ القيمة أقصى حدودها لدى النقاد والناس ، تلك الأحكام التي نعتوا بها بعض الأبيات من الشعر بأنها : (أشعر بيت) ، و(أحسن بيت) إلخ ، وهذا الحكم العام وإن قصّر في التعليل والتحليل ، إلا أن فيه تأكيدا على أن القيمة تبلغ حدّا من الجمال يصعب تفسيره ، ومثلما تكون في أجزاء ومعايير محددة من النص ، تكون أيضًا في أبيات اختارها الناس دون غيرها بسبب بلوغها درجة قصوى من الجودة .

وكانت النتائج التي وصل إليها النقاد القدامى تتفاوت في تقدير القيمة من ناقد إلى آخر ، وربما تجاوز الناقد ذاته القيمة الواحدة إلى قيمة أخرى يقف عليها في النصوص ويتصوّر فيها قيمة معينة تختلف عنده من نص إلى آخر ، وربما عجز الناقد في بعض المواقف عن الإفصاح عنها . فكل خطاب شعري كان يستدعي لدى الناقد تعاملا خاصًا يقف من خلاله على قيمة معينة ، حتى كثرت النعوت والخصائص والغايات والآراء المتّصلة بالشعر .

ومع ذلك كان الشعر قادرا على استيعاب كل تلك المزايا والآراء على تنوعها . وكانت كل خاصية من تلك الخصائص تُجسد قيمة معينة مقدّرة ، في حين تشكل الخصائص بمجموعها قوة كامنة في الخطاب الشعري تجعله قادرا على احتواء الكثير من القيم على تنوعها وتفاوتها وتناقضها .

وهكذا استطاع النقاد العرب القدامى أن يقفوا على مواقع للقيمة في الخطاب الشعري الذي بلغ أقصى حدود الجودة والإتقان والبراعة ؛ فهي واقعة في هذا البيت بالذات ولا تقع في غيره مما قد يشبهه أو يتجانس مع ما كان سببا في استحسانه . مثلما وقفوا على مواقع للقيمة في الحدّ الأدنى منها ؛ فهي واقعة في اللفظ أو المعنى أو التركيب أو غير ذلك من المبررات والعناصر التي تدلّ عليها. فلا موقع للقيمة في المطلق إذن وإنما هي موقعية توجد في هذا العنصر بالذات ، وفي هذا الكلام بالذات ، وفي عنصر آخر في كلام آخر لا علاقة له البتة بما كان سببا لاستحسانه . لذلك فإن القيمة لا توضع في قانون ولا نستطيع أن نحصرها في ظاهرة معينة .

فالقيمة مقدرة في الأشعار ، ومنفتحة باستمرار على الغايات والمطالب والمناهج ، وهذا الانفتاح هو الذي يميّز الخطاب الشعري عن سواه من الخطابات المحكومة بالخطأ والصواب مثلا ، ويؤهله للمكانة التي احتلّها وما زال يحتلها لدى الأفراد والمجتمعات ، ولدى فئات المتخصصين وغيرهم في كل مكان وزمان .

ويمكننا أن نوجز أبرز النتائج التي مكّن منها البحث في مسألة القيمة في النقد العربي القديم في الآتي :

١-أنتهى النقاد القدامى ، بعد بحث طويل عن المقومات والأسباب ، إلى أن القيمة لا معايير مطلقة لها ، ولا ضوابط مقيّدة تحدّها ، بل هي موقعيّة توجد في هذا البيت أو تلك القصيدة بالذات ولا تتجاوزهما لبلورة مقاييس عامة يمكن إخضاع جميع النصوص لها . فلا يمكن إذن حصر القيمة في وجه من الوجوه ، وإنما أصل القيمة موقعيّة كلّ يتصوّرها ويراها من جانب دون آخر .

وبذلك فطنوا إلى أن خصائص الخطاب الشعري هي خصائص كامنة في النص الشعري الجيّد ، بحيث تكون في نصّ له مواصفات ، وتكون في نص آخر ضدّه تماما فهي في الوضوح حينا ، وفي الغموض حينا ، وفي كثرة الصور الشعرية حينا ، وفي خلو الكلام منها حينا ، وفي الاقتصاد ، وفي المبالغة ، وفي الغلو حينا وأحيانا ، وهذا يدل على أنها ليست نتيجة عنصر وإنما هي نتيجة استعمال في موطن معين وعلى نحو معين .

٢-أن الخطاب الشعري كائنٌ متحرر ومتنقل ، في جاذبيته وجماليته وإيحاءاته ؛ إذ وجدنا أن كل عصر كان يجد جاذبيته في نصوص دون غيرها ولدى متقبلين مختلفين . وسيرورة الأدب ، ومنه الشعر خاصّة ، تكشف لنا أن القيمة قد تتجسّد في أبيات من الشعر معينة دون سواها ، وعلى نحو من الأنحاء دون سواه ؛ فمن اختار أشعار امرؤ القيس أو المتنبي أو أبي تمام أو البحتري ، أو غيرهم من الشعراء ، وردّدها على مرّ العصور وجد فيها جوابا أو تلبية لحاجة معينة وفي ظرف معين، وهكذا يتصرّف الشعر في كل زمان ومكان وفي كل وقت .

٣-لا تنحصر قيمة الخطاب الشعري فيما يشترك به مع غيره من الخطابات الأخرى ذات القيمة المطلقة ؛ فمثلا لا يمكن إطلاق القيمة في الشعر في العلم والمعرفة أو الخير أو الشر فنبحث عنها فيه كما نبحث في العلوم والأخلاق ، وإنما قيمته متنوعة ومتحوّلة ومتحرّكة . إذ كشفت تجربة الخوض في القيمة في النقد العربي القديم أن القيمة لم تكن مطلقة في الحديث عن العالم ؛ لأن العالم يتحدث عنه العلم ، ولم تكن محصورة في ضبط قواعد اللغة ؛ لأن اللغة لها علماؤها الذين ينهضون بتفصيل القول فيها ، كما أنها لم تكن مطلقًا في الأخلاق ؛ لأن الأخلاق تكفّل الخطاب القرآني والنبوي بتعديل سلوكها . وإنما القيمة في الخطاب الشعري قيمة مقدّرة ؛ ليكون منه كلام لا مرجع له في الواقع ، ويكون منه كلام آخر له مرجع فيعيد إدراكنا بما حولنا ، ويجدد شعورنا بما وقع أو بما هو واقع أو بما سيقع ، ويجعلنا نتأمل هذا العالم ونشعر به بطريقة تعبيرية مميزة . وهذه الطريقة التعبيرية التي مادتها اللغة هي التي تختزن القيمة داخلها لتتحكم في إعادة تشكيل اللغة على نحو مفعم بالثراء . فساعدت القيمة في انفتاح الخطاب الشعري على مواقف متنوعة في التعامل معه ، بسبب اختزاله لمميزات كثيرة لغوية وغير لغوية ، غائية وغير غائية ، فنيّة وغير فنيّة . فضلا عن أن منها خصائص أخرى باطنة أو مقدّرة عجز النقاد القدامى عن الوصول إليها وتفسيرها .

٤- ظلت معايير القيمة في النقد العربي القديم بمثابة أدوات مفهوميّة موصلة إلى التعرّف على بعض من خصائص الخطاب الشعري ، وموحية إلى ما فيه من الثراء المعرفي واللغوي والفلسفي والفكري والتاريخي .إذ كان حكم القيمة نابعًا من مدى استجابة الخطاب الشعري للمواقف التي يتمّ التعامل معه بها ، لتتعدّد أدوات استظهار القيمة وتتنوع مع الوقت .

ويعدُّ الوصول إلى أن القيمة موقعيّة في الخطابات الشعريّة ، وأنه ليس لها مقاييس وضوابط مطلقة، أهم كشف حققه النقاد العرب القدامى في معالجة المسألة . وهو كشف يبدو منسجمًا مع الواقع ؛ لأن الشعر الجيّد كالطّاقة المقدّرة القابلة للتحرّك كلما ساعدت الظروف على ذلك . وكل عصر يأخذ من الأشعار ما يصرّفه في ثقافته . والشعر مثلما يمكن تسخيره لتلبية غايات الناس ، وخدمة أغراضهم ، وبلوغ أهدافهم ، من الممكن أيضًا الإفادة مما فيه من قيمة كامنة تحملها بعض الأشعار من زمن إلى آخر ، ومن مكان إلى مكان . وهذه الاستمرارية لبعض الأشعار دون أخرى كانت بسبب القيمة التي تكْتنزها ، وهي قيمة متجدّدة ومتغيّرة بحسب تجدّد المواقف وتغيّر النظر في الشعر عند التعامل معه .